# فى الرحلة إلى النجف الأشرف

كنت خلال إقامتى ببغداد أتردد على دار معالى رضا الشبيبى ، فألتقى هناك أحياناً بسيد من سادات النجف هو السيد صالح شمسة وهو من أهل بيت من أقدم البيوتات وأعرقها فى النجف ، وبه ينزل سمو الوصى المعظم عند زيارته لذلك المقر الشريف . فكان يصف لى ما يمتاز به النجفيون من القدرة على ارتجال الشعر والكلف بالأدب والرواية ، وحرصهم على تخريج أولادهم بالاطلاع والقراءة ، وإغرائهم بالمطارحة وتحصيل العلوم العربية . ثم أخبرنى بمثل ذلك صديقى السيد حسين بستانة وأكد لى أنه لا بد من زيارة النجف وكربلاء والتفرج بمطالعة ما فى تلك المشاهد المقدسة من الآثار والنفائس والتيمن بقضاء الواجب من زيارة على والحسين عليهما السلام . وبعد ظهر يوم من أيام الخميس جاءنى ذلك الصديق وقال اليوم نفاجئ أهل النجف بالزيارة . ولا يسعنى أن أنسى ما ناطه ذلك الصديق الوفى بعنقى من الفضل ؛ فقد فرض حولى نطاقاً من عنايته لم يدعنى أفلت من مكرمة يسديها دائماً إلىّ بطيب نفس ووفاء لم أر مثله إلا له . وهو أحد طائفة من مثقفى البغداديين الذى تخرجوا فى دار العلوم العالية ، وما يزالون يحتفظون بهذه الذكريات الغالية لتلك الأيام التى أقاموها بمصر . ومما يستحق الذكر أنهم جميعاً ينهضون اليوم بأعباء جسام فى المصالح المختلفة بالحكومة العراقية .

خرجت مع ذلك الصديق فى طريقنا إلى النجف ، فمررنا بعد قليل ببعض روافد الفرات وهو يتدفق بالماء وعلى جانبيه زروع وبساتين ونخيل وبقاع أخرى جرداء بلاقع ، فذكرنى ذلك بما يرى فى مصر أيام فيضان النيل وما يذهب من مائه فى البحر ، وفى واديه صحارى قاحلة لا يعد ما يزرع بجانبها شيئاً يذكر . وذلك بالضرورة دليل على عجز العراق ومصر إلى الآن عن اتخاذ سياسة مائية يحتفظان معها على الأقل بنصيب مما يذهب من هذا

الغدق السائح هباء . ثم انتهينا بعد قليل إلى مدينة الحلة ، وهى من المدن القديمة فى حواضر العراق ، وإن كانت لا تزيد فى عمرانها عن بعض مراكز القطر المصرى ، فنزلنا بدار السيد خير الهنداوى ، وهو من رجال الحلة وهو شاعر أديب من الشعراء الذين لا يفشون أشعارهم ، فقضينا فى ضيافته ليلة خصنا منه ومن بنيه الغرانيق الثلاثة مالا قبل لنا بشكرهم عليه من التكرمة والحفاوة . وفى صباح اليوم التالى تفرجنا بأطلال بابل ورأينا بقايا القصر الملكى القديم لبخت نصر ، ثم عدنا فتغدينا على مائدة السيد الهنداوى مع جماعة من كرام الحليين . وبعد انقضاء فترة من الحديث والمؤانسة خرجنا إلى النجف فبلغناها بعد نحو ساعتين تقريباً ، ونزلنا بدار السيد غياث بحر العلوم ، وهو شاب مهذب من رجال المحاماة يتمتع بجانب وافر من الدماثة ورقة الحاشية . ثم دعينا لزيارة جماعة الرابطة الأدبية ، وهى تشبه عندنا هذه الجماعة الناشئة التى تسمى بجماعة أدباء العروبة . غير أن الرابطة النجفية تمتاز بالجد فى العمل على تنمية المواهب المطبوعة التى لا يبعد أن تكون أثراً من آثار الوراثة المنحدرة من أصلاب بعيدة العهد لأولئك الأوائل من الشعراء المتقدمين ؛ فهم ينظمون الشعر على مناهج القدماء ويتشبهون بهم فى إحياء الديباجة العربية والعبارات المختارة . وإذا كان شاعر العراق اليوم ، وهو السيد مهدى الجواهرى كما علمت ، نجفى الأصل ، فقد حق لأهل هذه المدينة أن يتطاولوا على الناس فانه على ما أعتقد يستحق أن يدعى أشعر شعراء العربية فى هذا الوقت غير مدافع . وقد استمعنا فى هذه الرابطة إلى عدة من الخطب والأشعار تدور كلها حول الاعجاب بمصر والمباهاة بما بلغته من التقدم والمدنية ، وتتضمن مع ذلك شيئاً كثيراً من الحفاوة بنا ووصفنا بما لا نبلغه من التقدير والتكرمة تفضلا منهم وحسن ضيافة . وسنذكر من هذه القصائد والخطب ها هنا قصيدة واحدة مراعاة للاختصار ، وهى للشاعر الكبير السيد الحبوبى . قال حفظه الله فى مطلعها :

فى النيل والنيل زاكى الثمر أذقنا الجنى أدباً مبتكر
وأنشد هنا شعرك العبقرى وخذ بمعانيه تلك الزمر
وروّقه خمراً كما يرتجى وأرسله نشراً كما ينتظر

وما شئت فاسحر به السامعين ... فما كل من قال شعراً سحر
فتى النيل طف ساعة بالفرا ... ت تجد فى مطافك أسمى العبر
تأمل مليا وسل ما ترى ... لتلك المعالى هنا من أثر
متى ردت الفتح والفاتحين ... أكف الليالى وأيدى الغير
وكيف استباحت عرين الأسود ... ذئاب ولله حكم القدر

ثم يقول :

فتى النيل أحبب بها ليلة ... يلذ وإياك فيها السمر
تحدث وعطر فضاء الندى ... بأطيب مما تذيع الزهر
وخبّر أنبلغ ما نشتهى ... فقد ينعش السامعين الخبر
أتصدق فى مصر أحلامنا ... بضم العروبة فى مؤتمر

وهى قصيدة طويلة مفرغة فى مثل هذه السلاسة والرقة . وبعد انتهاء هذه الحفلة الأدبية عدنا إلى دار مضيفنا ، وهناك أقبل مشايخ النجف ولفيف من أدباء الرابطة وغيرهم ، فقضينا جانباً من الليل فى سمر ومجاذبة طيبة . وفى الصباح زرنا دار منتدى النشر ، وهى جماعة أدبية أخرى تعنى مع نزعتها الأدبية بالبحوث العلمية المختلفة وتعمل لدراسة الكتب القديمة ، ويتخرج فى أروقتها الطلاب بتحصيل معظم العلوم الاسلامية . وهذه الجماعات الأدبية على تعدد أسمائها تتعاون جميعاً على حماية اللغة الفصيحة والأدب المهذب من أن تنال منهما عجمة المتشاعرين والمتعاطين للأدب من غير أهله ممن لا يخلو منهم قطر من الأقطار العربية . ويتفاءل المخلصون لهذه الجماعات الأدبية أن تكون نواة صالحة لبناء جامعة كبرى فى النجف الأشرف تقوم بتنظيم الدراسات الأدبية وتزويد مدارس الفلسفة الاسلامية ومذاهب الفقهاء بالمباحث الصحيحة من خلاصة العرفان المأثور للأئمة المجتهدين من أهل هذه المدينة وغيرهم من علماء العراق .

ولأدباء النجف طابع تغلب فيه النزعة الدينية ، ولهم صحف ومجلات يعد فى طليعتها مجلتا « الاعتدال » و « البيان » لصاحبيهما الأستاذ البلاغى و الخاقانى وكلاهما من الكتاب البارزين ، وهما يخدمان النهضة الأدبية والعلمية ويضحيان فى سبيلها بالقلم والمال .

ولقد كان يرافقنا فى كل انتقالاتنا السيد هاشم رزين حاكم النجف ، وهو رجل كريم الخلق جهير ضاحك الثغر صحبنا فى الصباح الثانى إلى روضة الامام أبى الحسن على بن أبى طالب . وبعد أن طفنا بهذه الحضرة العلوية وقضينا نسكنا منها عدنا إلى خزائن النفائس والمجوهرات الخاصة بهذه السدة الشريفة؛ فرأينا ما يبهر الأبصار ، ويحير العقول من الستائر المنسوجة باللؤلؤ والجوهر وغيرها من نفائس الأحجار ، وهن أربع ستائر لا أظن أن أحداً ولا هيئة من الناس تستطيع تقويمها بالمال الآن ، ثم رأينا غيرها من الستائر المنسوجة بالماس على شكل الكمثراة والقنديل الضخم المصنوع من صفائح الذهب المحلاة بألوان من الأحجار الكريمة . وبعد أن قضينا من ذلك وطراً عدنا فطفنا حول هذه الأضرحة المتزينة بالقباب الموشاة بالذهب . ثم قضينا سائر اليوم فى تزاور ومطالعة ، وخرجنا مودعين من أهل النجف إلى كربلاء ، بعد أن تغدينا ومعنا جماعة الرابطة والأساتذة المصريون وغيرهم فى دار السيد صالح شمسة ولقينا من حفاوته ما أعجزنا عن الكلام . فبتنا ليلتنا بدار السيد حسين سادن مقام العباس بن على رضى الله عنهما ، ثم تناولنا طعام الغداء على مائدة سعادة المتصرف السيد طاهر القيس الذى حشد للقائنا وأفاض فى الحفاوة بنا بما لا يحيط به الوصف ، واستمعنا عنده إلى أناشيد الشاعر اليعقوبى وهو يترنم بشعره وأشعار غيره بأنغام وإيقاع مطرب شجى كما كان يفعل حافظ ابراهيم رحمه الله . ثم عرجنا فى طريقنا على مدينة الكوفة ، فتشرفنا بزيارة جماعة من أئمة الشيعة ومجتهديهم ، نذكر منهم السيد الزنجانى والإمام كاشف الغطاء والجزائرى وغيرهم . ثم عدنا بعد ذلك إلى بغداد . وقد تركت هذه الرحلة فى نفسى من الأثر ما حفزنى إلى أن أنوه بها على صفحات « الكاتب المصرى » الذى رأيت له بالعراق عشاقاً كثيرين من كرام القراء . ويجمل بى أن أختم هذه الكلمة بذكر قصيدتى التى ألقيتها فى دار الرابطة الأدبية بالنجف إتماماً للفائدة . وهذه هى القصيدة :

أمن بغداد أزمعت الركابا ... وخليت المنازل والصحابا
وأنت بغيدها كلف تمنى ... لو انك قد لبست بها الشبابا
وأنك كنت لا تقنى حياء ... ولا تخشى على فند عتابا
لأبكار زهاها الحسن حتى ... خلعن له من الدل النقابا

يرحن موائسا ويفحن عطراً ... وما ضمخن من عطر ثيابا
يساقطن الحديث كأن سلكاً ... نثرن به لآلئه الرطابا
وإنك إذ رجيها لوعد ... لكاظمان إذ يرجو السرابا
وإن لبست عباءتها وأرخت ... مآزرها وآثرت الحجابا
تريك إذا انثنت للحين كفًّا ... تزين من أناملها الخضابا
وجيداً حاليا ورضاب ثغر ... تذم لطعمه الشهد المذابا
وصدرا فيه رمان صغار ... يطلن بمهجة الصب العذابا
تسائلنى وأنت بها عليم ... كأنك لست معموداً مصابا
أجِدَّك هل بعثت لها رسولا ... فصدَّق عن دخيلتها الجوابا
وهل أخفيت شجوك عن سميم ... تهانف حينما شهدت وغابا
وهل أرسلت من زفرات قلب ... تعلقها على مقة ... وثابا
وأقصر عنه باطله ... وماذا ... يرجى المرء إن فوداه شابا
وليس له على الستين عذر ... إذا قالوا : تغازل أو تصابى
فعدَّ عن الصبا والغيد واطلب ... إلى الأشياخ فى النجف الرغابا
ففى النجف الأغر أروم صدق ... تربعت الأباطح ... والهضابا
عشقت لهم ولم أرهم خلالا ... حلا صفو الزمان بها وطابا
متى ما تأت منتجعاً حماهم ... تر الأحساب والكرم اللبابا
لقيت لديهم أهلى وساغت ... إلى قلبى مودتهم شرابا
وهل انا إن أكن أنمى لمصر ... لغير مجارهم أرضى انتسابا
عجبت لمادح لهم بشعر ... ولا يخشى لقائلهم معابا
وإن ينظم وليدهم قريضا ... أراك السحر والعجب العجابا
غرائب منهم يطلعن مجدا ... ويزحمن الكواكب والسحابا
أولئك هم حماة الضاد تعزى ... عروقهم لأكرمها نصابا
وأصلبها على الضراء عودا ... وأثقبها إذا قدحت شهابا
وأوفاها إذا حلفت بعهد ... وأطولها إذا انتسبت رقابا
وكيف وفيهم مثوى علىٍّ ... بنوا من فوق مرقده قبابا
وقدمًا كان للبطحاء شيخا ... وكان لقبة الاسلام بابا
نجىٌّ رسالة ... وخدين وحى ... إذا صلت حلومهم أصابا

وإن شهد القبائل نار حرب ... مجلجة فوارسها غضابا
أخاض غمارها جرداً عتاقا ... وأشعل نارها أسلا وغابا
فما كأبى الحسين شهاب حرب ... إذا الأستار أبرزت الكعابا
وليس كمثله إن شئت هدياً ... ولا إن شئت فى الأخرى ثوابا
ولا كبنيه للدنيا حليًّا ... ومرحمة إذا الحدثان نابا
متى تحلل بساحتهم تجدها ... فسيحات جوانبها رحابا
وإن شميت بوارقهم لغيث ... تحدَّر من سحائبه وصابا
هم خير الأئمة من قريش ... وأزكاهم وأطهرهم إهابا
حباهم ربهم حلماً وعلما ... ونزَّل فى مديحهم الكتابا
وحببهم إلى الثقلين طرا ... وزادهم اسدته اقترابا
فمن يك سائلا عنهم فإنى ... أنبئه إذا احتكم الصوابا
فلن تلقى لهم أبداً ضريبا ... إذا الداعى لمكرمة أهابا
مصابيح على الأفواه تتلى ... مدائحهم مرتلةً عذابا
وما دعى الاله بهم لأمر ... تعذر نيله . . . إلا استجابا

محمد هاشم عطيه